من أعلام رجال الفكر في عصر الحروب الصليبية :

ابن دقيق العيد

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

تقي الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين أبي الحسن علي بن وهب ابن مطيع القشيري .

ولد يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦٢٥ بظهر البحر الأحمر ، قريباً من ساحل مدينة ينبع بالحجاز ، وأبواه متوجهان من قوص للحج ، قالوا : وحمله والده على يديه ، ودعا ربه ، وهو يطوف به الكعبة أن يجعله من العلماء العاملين ، فاستجاب الله دعوته .

وكانت أسرة ابن دقيق العيد قد اتخذت قوص موطناً لها بعد أن هجرت مدينتها الأولى منفلوط ، فنشأ الفتى بقوص ، وكانت من أهم مراكز الثقافة في ذلك الحين ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم درس فقه مالك على والده الذي كان من أئمة المالكية ، كما أخذ عنه الحديث والأصول ، ودرس في قوص على غير والده أيضاً ، فأخذ فقه الشافعية عن تلميذ والده بهاء الدين القفطي ، ودرس الأصول على علم من أعلام هذه المادة وهو شمس الدين الأصبهاني ، والنحو على شرف الدين المرسي ، ثم رحل في طلب العلم إلى القاهرة والإسكندرية ودمشق والحجاز ، وأخذ عن كبار علماء عصره مثل الحافظ المنذري وعز الدين بن عبد السلام ، وعليه درس فقه الشافعي أيضاً ، وبهذا أتقن وهو شاب مذهبي الشافعي ومالك إتقاناً عظيماً بلغ به درجة الإفتاء بهما ، وقد قال فيه ابن القويع من قصيدة يمدحه بها :

صبا للعلم صبًّا في صباه ... فأعْلِ بهمة الصب الصبي
وأتقن والشباب له لباس ... أدلّة مالك والشافعي

وعاد الشاب إلى مدينته وقد درس الفقه على المذهبين ، وأصول الفقه ، والحديث وعلومه ، وعلم الكلام ، والتفسير والنحو واللغة والأدب ، وكان أكبر ما امتاز فيه الفقه والحديث .

أما في الفقه ، فقد ارتفع عن مستوى التقليد المطلق الذي يقف فيه عند نصوص الأئمة لا يحيد عنها ، بل يرتفع إلى حيث يستخلص الأحكام من أدلتها في الكتاب والسنة .

قال مؤرخه فتح الدين اليعمري : « وكان حسن الاستنباط للأحكام والمعاني من السنة والكتاب ، بلب يسحر الألباب ، وفكر يفتح له ما يستغلق على غيره من الأبواب ، مستعيناً على ذلك بما رواه من العلوم » .

وقال عنه أبو حيان : « هو أشبه من رأيناه يميل إلى الاجتهاد »

ولعل ابن دقيق العيد كان يرى نفسه مجتهد عصره ، فإنه كان يؤمن بأن كل وقت لا يخلو من مجتهد . وقد وضع كتاب الإلمام ، جمع فيه الأحاديث التي يستنبط منها الأحكام ، مما يدل على ما وصل إليه من درجة ممتازة في الاستنباط والاستدلال .

وأما في الحديث ، فقد برع في معرفة متنه وإسناده وعلله ، حتى أصبح أوحد عصره فيه ، وله في علوم الحديث مؤلف دعاه « الاقتراح في معرفة الاصطلاح » ، وإليه أسند والي قوص التدريس في دار الحديث التي أنشأها بها .

وقد ساعده على بلوغ هذه المنزلة من العلم ذكاء ممتاز ، ودأب على التحصيل ، وسهر بالليل للدرس ، وشره في القراءة ، وغرام بالاطلاع . قال الأدفوي في الطالع السعيد : « كان له قدرة على المطالعة . رأيت خزانة المدرسة النجيبية بقوص فيها جملة كتب ، من جملتها عيون الأدلة لابن القصار في نحو من ثلاثين مجلدة ، وعليها علامات له . وكذلك رأيت كتب المدرسة السابقية ، رأيت على السنن الكبير للبيهقي ، فيها من كل مجلدة علامة ، وفيها تاريخ الخطيب كذلك ، ومعجم الطبراني الكبير ، والبسيط للواحدي ، وغير ذلك » ؛ وأخبرني شيخنا الفقيه سراج الدين الترمذي أنه لما ظهر الشرح الكبير للرافعي اشتراه بألف درهم وصار يصلي الفرائض فقط ، واشتغل بالمطالعة إلى أن أنهاه مطالعة . ويقال إنه طالع كتب مكتبة المدرسة الفاضلية عن آخرها ، وكانت ذات مكتبة ضخمة حافلة .

وإلى جانب غرامه بالقراءة كان كثير النقد والتحري والتدقيق فيما يقرأ ، لا يقبل الشيء من غير أن يعمل فيه فكره فيقبله أو يرفضه .

ولعل كثيرين من مقدريه وعارفي فضله قد نصحوه بمغادرة

قوص إلى القاهرة ، حيث يظفر فيها بالتقدير وبعد الصوت والرزق الواسع ، وحيث يجد المجال واسعاً لذيوع علمه والشهرة ووضيع المناصب ، وقد تردد ابن دقيق العيد في قبول هذا العرض ، ظناً منه أن نيل ذلك كله لا يكون إلا بفقد شيء من الكرامة ، والتهاون في كثير من أمور الدين ، وهو يحدثنا عن ذلك في قوله :

يقولون لي: «هلا نهضت إلى العلا ... فما لذ عيش الصابر المتقنع
وهلا شددت العيس حتى تحلها ... بمصر إلى ذاك الجناب المرفع
ففيها من الأعيان من فيض كفه ... إذا شاء روى سيله كل بلقع
وفيها قضاة ليس يخفى عليهم ... تيقن كون العلم غير مضيع
وفيها شيوخ الدين والفضل والأولى
يشير إليهم بالعلا كل إصبع
وفيها ... وفيها ... والمهابة ذلة
فقم، واسع، واقصد باب رزقك، واقرع»
فقلت : «نعم أسعى إذا شئت أن أرى
ذليلا مهاناً مستحقاً لموضع
وأسعى إذا ما لذ لي طول موقفي ... على باب محجوب اللقاء ممنع
وأسعى إذا كان النفاق طريقتي ... أروح وأغدو في ثياب التصنع
وأسعى إذا لم يبق فيَّ بقية ... أراعي بها حق التقى والتورع
وكم بين أرباب الصدور مجالس ... يشب لها نار الغضا بين أضلع
فإما توقى مسلك الدين والنهى ... وإما تلاقي غصة المتجرع»

وكان في صميم قلبه يرجو أن يظفر بالرفعة من غير أن يفقد في سبيلها كرامته ، وهذا هو السر في نقمته على أرباب المناصب الذين لم يعرفوا قدره ، ولم ينزلوه ما هو جدير به من رفيع المنازل ، نحس بذلك في قوله :

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها ... أهل الفضائل مرذولون بينهم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم ... منازل الوحش في الإهمال عندهم
فما لهم في توقي ضرنا نظر ... وما لهم في ترقي قدرنا همم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم ... مقدارهم عندنا أو لو دروه هم
لهم مريحان: من جهل وفرط غنى ... وعندنا المتعبان : العلم والعدم

ولكن يظهر أن الحالة المالية لابن دقيق العيد دفعته إلى المجيء إلى القاهرة ، حيث ولي المدرسة الصلاحية سنة ٦٨٠ ، ودرس الحديث بدار الحديث الكاملية وكان له منزل بها ، وعلم الفقه على مذهبي الشافعي ومالك بالمدرسة الفاضلية ، كما درّس أيضاً بالمدرسة الصالحية والقبة المنصورية .

ومع ذلك لم يُثرِ ابن دقيق العيد ، بل لم يدفع عن نفسه شر الفاقة ، وكان يضطر إلى الاستدانة أحياناً ، وإن كان قد ظفر أخيراً بالثراء والرخاء ، فاستمتع وأكثر من التسري ، وكان يثني عطفه قائلا :

سحاب فكري لا يزال هامياً ... وليل همي لا أراه راحلا
قد أتعبتني همتي وفطنتي ... فليتني كنت مهيناً جاهلا

وربما كانت رغبة ابن دقيق العيد في الاستمتاع بمباهج الحياة هي التي دفعته إلى أن يعترف للشيخ زكي الدين بأنه أدين منه .
حكى تاج الدين الدشناوي قال : « خلوت به مرة فقال : يا فقيه ، أقرت رؤية الشيخ زكي الدين عبد العظيم ؟ فقلت : ورؤيتك ؟ فكرر الكلام ، وكررت الجواب؛ فقال : كان الشيخ زكي الدين أدين مني ؛ ثم سكت ساعة وقال : غير أني أعلم منه !

وظفر ابن دقيق العيد بشهرة واسعة ، وصوت بعيد ، وتقدير عميق في قوص والقاهرة ، حتى في أيام أساتذته . وفي سنة ٦٩٥ ولي قضاء قضاة الشافعية في الديار المصرية ، وقد استقبل كثير من مقدريه قبوله هذا المنصب بشيء من العتب عليه واللوم ، ورأوا فيه حطاً من عظيم قدره ، وكانوا يفضلون بعده عن مناصب السلطان ويعدون ذلك زلة له ، ولكني لا أوافقهم على ما ذهبوا إليه ، ولا سيما أن ابن دقيق العيد كان أحب الناس رعاية الحقوق وإحقاق العدالة ، ورسائله إلى من كان ينيبهم من القضاة يحثهم فيها على تحري الحق ، ويخوفهم من الظلم ، ويشعرهم بما عليهم من التبعة تدلنا على مقدار ما ظفر به المنصب يوم حله هذا العالم الممتاز . وكان هو نفسه يشعر بثقل العبء الملقى عليه تشبثاً ، فكان يقول : « والله ما عذر الله لمن بلي بالقضاء » ؛ ويقول : « لو لم يكن إلا طول الوقوف للسؤال والحساب لكفى » . وأثر عنه في القضاء آثار حسنة ، منها انتزاع أوقاف كانت أخذت واقتطعت لمقطعين ، ومنها أن القضاة كان يخلع عليهم الحرير ، فخلع على الشيخ الصوف واستمرت ، ورتب على الأوصياء مباشراً من جهته ، وكان يكتب إلى نوابه يذكرهم ويحذرهم .

ولم ينج ابن دقيق العيد وهو في منصب القضاء من ساخطين

عليه ، هجوه بالشمرخينا ، وبالرجل حيناً آخر . قال برهان الدين المصري الحاذق الطبيب ، وكان قد استوطن قوص سنين : « كنت أباشر وقفاً فأخذه مني شمس الدين محمد بن أخي الشيخ وولاه لآخر ، فنز علي ، ونظمت أبياتاً في الشيخ فبلغته ، فأنا أمشي مرة خلفه وإذا به قد التفت إلي وقال : « يا فقيه ، بلغني أنك هجوتني ؟ » فسكت زماناً فقال : « أنشدني » ؛ وألح علي ، فأنشدته :

وليت قولي الزهد عنك بأسره وبان لنا غير الذي كنت تظهر
ركنت إلى الدنيا وعاشرت أهلها ولو كان عن جبر لقد كنت تعذر

فسكت زماناً ، ثم قال : ما حملك على هذا ؟ فقلت : أنا رجل فقير ، وأنا أباشر وقفاً أخذه مني فلان ؛ فقال : ما علمت بهذا . ورد الوقف إليه .

وارتفعت منزلته عند سلاطين عصره ، فكان السلطان لاجين ينزل له عن سريره ويقبل يده . وفي سنة ٦٩٨ بعد وفاة الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله ، أرسل إليه السلطان الناصر محمد يستشيره فيمن يوليه الخلافة بعده .

واستمر ابن دقيق العيد في منصب القضاء ، وإن كان قد عزل منه نفسه أحياناً ، حتى مات يوم الجمعة حادي عشر صفر سنة ٧٠٢ ، ودفن يوم السبت بسفح المقطم .

قال الأدفوي في الطالع السعيد : « وكان ذلك يوماً مشهوداً عزيزاً في الوجود ، سارع الناس إليه ، ووقف جيش مصر ينتظر الصلاة عليه ، رحمه الله تعالى ، وهو ممن تأسف على فوات رؤيته ، والتملي بفوائده وبركاته » .

ورثاه الشريف محمد بن محمد القوصي بقصيدة طويلة منها قوله :

سيطول بعدك في الطلول وقوفي أروي الثرى من مدمعي المذروف
لو كان يقبل فيك حتفك فدية لفديت من علمائنا بألوف !
يا طالبي المعروف ، أين مسيركم ؟ مات الفتى المعروف بالمعروف !
ما عنف الجلساء قط ، ونفسه لم يخلها يوماً من التعنيف
يا مرشد الفتيا إذا ما أشكلت طرق الصواب ، ومنجد الملهوف
من للضعيف يعينه ؟ أنى أتى مستصرخاً ، يا غوث كل ضعيف
أفنيت عمرك في تقى وعبادة وإفادة لعلم أو تصنيف
لهفي على حبر ، بكل فضيلة علياء من زمن الصبا مشغوف
كان الخفيف على تقي مؤمن لكن على الفجار غير خفيف
أمنت أحاديث الرسول به من التبديل والتحريف والتصحيف
ومضى وما كتبت عليه كبيرة من يوم حل بساحة التكليف
صبراً بنيه ، قرة من بعده صبر الكريم الماجد الغطريف

كما رثاه جماعة من الفضلاء والأدباء بالقاهرة وقوص .

وترك كثيراً من الأولاد ، فكان له من الذكور عشرة سماهم بأسماء الصحابة ، وأخذ عنه عدد ضخم نبغ من بينهم جم غفير صار منهم المحدثون والنحويون وقضاة القضاة .

وألف كثيراً من الكتب : منها كتاب الإلمام ، الجامع أحاديث الأحكام ، وقد أثنى العلماء ثناء جماً على هذا الكتاب ، حتى ادعى بعضهم أنه ما وضع في هذا الفن مثله . وقال عنه تقي الدين بن تيمية : « هو كتاب الإسلام » وشرع في شرحه ؛ ولكن يظهر أنه لم يتمه . وقد اشتمل الشرح فضلاً عن الأحكام المستنبطة على أنواع أدبية ، ونكت خلافية ، ومباحث منطقية ، ولطائف بيانية ، ومواد لغوية ، وأبحاث نحوية ، وعلوم حديث ، وملح تاريخية ، وإشارات صوفية . ومنها كتاب الإمام في الأحكام ، وهو في عشرين مجلداً ، وشرح كتاب التبريزي في الفقه ، ومقدمة المطرزي في أصوله ، كما شرح بعض مختصر ابن الحاجب في الفقه ، ووضع في علوم الحديث كتاب الاقتراح في معرفة الاصطلاح . وله مصنف في أصول الدين .

وكان ابن دقيق العيد إلى جانب امتيازه في التدريس والتأليف خطيباً بارعاً سمعه الشاعر المعروف أبو الحسين الجزار وهو يخطب بقوص فأعجب ببلاغته ، ثم أنشده مادحاً له :

يا سيد العلماء ، والأدباء ، والبلغاء ، والخطباء ، والحفاظ
شنفت أسماع الأنام بخطبة كست المعاني رونق الألفاظ
أبكت عيون القاسين فصولها فزكت على الخطباء والوعاظ
ستقول مصر إذ رأتك لغيرها ما الدهر إلا قسمة وأحاظ
ويقول قوم إذ رأوك خطيبهم : أنسيتنا قساً بسوق عكاظ

وجمع له ديوان خطب .

وكان يقول الشعر ، وقد رأينا بعض نماذج له ، وتستطيع

بقراءته أن نعرف بعض خلجات نفسه ، وروى مؤرخوه كثيراً من هذه النماذج ، نتسمعه حيناً ينقم على حظه ويقول :

الحمد لله ، كم أسمو بعزمى فى نيل العلا ، وقضاء الله ينكسه
كأنى البدر أبغى الشرق والفلك الأعلى يعارض مسعاه فيعكسه

كما جأر مرة أخرى بالشكوى من الفقر حين قال :

لعمرى ، لقد قاسيت بالفقر شدة وقعت بها فى حيرة وشتات
فإن بحت بالشكوى هتكت مروءتى وإن لم أبح ، بالصبر خفت مماتى
وأعظم به من نازل بملمة يزيل حيائى أو يزيل حياتى

ويلجأ إلى الله قائلا :

وقائلة : مات الكرام ، فمن لنا إذا عضنا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها : من كان غاية قصده سؤالا لمخلوق فليس بنابه
لئن مات من يرجى فمعطيهم الذى يرجونه باق فلوذوا ببابه

وتلمس حبه للوقار وغرامه به ، حتى قالوا : إن العاد يستطيع إحصاء كلامه ، لأن كثرة الكلام تذهب بالوقار فى قوله :

تمنيت أن الشيب عاجل لمتى وقرب منى فى صباى مزاره
لآخذ من عصر الشباب نشاطه وآخذ من عصر المشيب وقاره

وله شعر كثير فى مدح الرسول ، ومن ذلك موشحة أوردها صاحب الفوات منها قوله :

بنى العز للتوحيد من بعد هدمه وأوجب ذل المشركين بجده
عزيز قضى رب السماء بسعده وأيده عند اللقاء بجنده
فأورده النصر أعظم مشرع

وله نثر لايخرج عن طريقة أهل عصره الذين أغرموا بالسجع والمحسنات البديعية ، ونجد له نماذج فى كتبه وفى الطالع السعيد ، كما كان مطلعاً على كتب الأدب ، حتى لقد كان الشهاب محمود يقول عنه : « لم تر عينى آدب منه » .

ويثنى مؤرخوه على أخلاقه الاجتماعية والشخصية ، وكان خفيف الروح لطيفاً على تمسك وورع ، ودين متبع ، يقابل الإساءة باللطف والإحسان ، شفيقاً بالمشتغلين ، كثير البر لهم ، جواداً كريماً ، يحاسب نفسه ويشتد فى حسابها .

كل ذلك قد دفع معاصريه ومؤرخيه إلى أن يغمروه بإعجابهم إلى آخر درجات الإعجاب . فهذا فتح الدين بن سيد الناس يقول : « لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا حملت أنى بأجل منه فيما رأيت ورويت ، لا يشق له غبار ، ولا يجرى معه سواه فى مضمار » .

وقال الذهبى عنه : « كان إماماً متفنناً ، مجوداً محرراً ، فقيهاً مدققاً ، غواصاً على المعانى ، وافر العقل ، كثير السكينة ، تام الورع ، سمحاً ، جواداً ، زكى النفس ، عديم الدعوى » .

أما السبكى فيقول عنه : « شيخ الإسلام ، الحافظ الزاهد الورع ، الناسك المجتهد المطلق ، ذو الخبرة التامة بعلوم الشريعة ، الجامع بين العلم والدين ، والسالك سبيل الأقدمين ، أكمل المتأخرين وبحر العلم الذى لا تكدره الدلاء ، ومعدن الفضل الذى لقاصده منه ما يشاء ... ولم تدرك أحداً من مشايخنا يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة ، وأنه أستاذ زمانه علماً وديناً » .

وذكره ابن أبى الإصبع صاحب كتاب البديع فى كتابه فقال : « هو من الذكاء والمرونة على حالة لا أعرف أحداً فى زمنى عليها » .

وهكذا ظفر ابن دقيق العيد بإعجاب لا حد له ، ولا يزال اسمه إلى اليوم يذكر فى الفقه محاطاً بهالة من الإكبار والإجلال .

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

المراجع :

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩١
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٤٤
(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨٩ ، ١٤٨ ، ٦ ، ٢
(٤) السلوك للمقريزى الجزء الأول فى مواضع شتى
(٥) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٥١ و ٢٦٢
(٦) طبقات الشافعية للسبكى ج ٦ ص ٢
(٧) طبقات الحفاظ للسيوطى ج ٢ ص ٦٥
(٨) حسن المحاضرة له ج ١ ص ١٤٢ و ج ٢ ص ١١٣ و ١٥٧ و ١٥٩
(٩) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ص ٤١٧
(١٠) الطالع السعيد ص ٢٩ و ٧٢ و ٣٢٧ و ٣٥٢
(١١) الديباج المذهب ص ٢٨٣
(١٢) تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٤ ص ٢٧٢